

الخرفنا زرقاء

للكاتب الفرنسي بروسير مريميه
بقلم الأستاذ كامل محمود جيب

يحججك عنى ! « فقالت
الفتاة : « لاضير ، فلنأخذ
مكاناً هادئاً فى القطار
قبل أن يتدفق إليه
الناس . » ثم جذبته
وهى تقول : « إن واحداً
لا يستطيع أن يتعرفنا
الآن . أنا الآن مع
كلارا وزوجها فى

طريقنا إلى الربف — كما يظن الجميع — وسأعود
عند ظهر الغد ؛ أفهمت ؟ إنه لن يتطرق إلينا الشك
أبداً ، ثم ... ثم إذا سئلنا عن أسمائنا فى الفندق ؟
قال الفتى : « السيد دورو والسيدة زوجه » قالت :
« لا ، لا ، لا ! لقد كان هذا اسم حذاء هناك ! » قال :
« السيد ديموند والسيدة زوجه » قالت : « لا بأس ،
لا بأس ! »

ودق الجرس ، بعد أن أصابا مكاناً خالياً كأنما
كان مهيأاً لها بخاصة ، فصاحا معاً « إننا الآن فى
خلوة ! » غير أن السرور الذى أقم قلبيهما حين
وجدتا نفسيهما وحيدتين لم يستقر إلا ريثما يفزع
رجل فى الخمسين من سنى عمره فى ملابس سوداء
قائمة تبدو عليه سمات الحزن والجد وأثر النعمة وهو
يدلف إليهما فى هدوء ، وبقى بنفسه فى زاوية بإزائهما .
وانطلق القطار . وانتحى الشاب وصاحبه ناحية
ثم راحا يتهاامسان باللغة الإنجليزية فى حذر . فنظر
إليهما الرجل برهة ثم قال فى لسان إنجليزى فصيح :
« سيدى ، إن كان لديك من الحديث ما تشفق أن
أسمعه فلا تقله بالإنجليزية لأننى إنجليزى النشأة
والربى ؛ ولشد ما يؤمنى أن أزججك أو أقطع عليك
حديثك ، ولكن بالرغم منى ما فعلت ، فى العربة
(٣)

أخذ الفتى يذرع فناء المحطة مقبلاً مديراً تبدو
عليه سمات الاضطراب والقلق ، وهو يجتهد أن يخفى
معالم وجهه ، فهو قد أرخى طرف قبعته على جبهته ،
ووضع نظارة زرقاء على عينيه ، ولف حول عنقه
منديلاً كبيراً ، وفى يمينه منديل يرفعه إلى أنفه بين
الحين والحين ، وقد حمل فى يسراه حقيبة صغيرة فيها
بعض متاعه ... وهو ينطلق إلى باب المحطة بين الفينة
والفينة يستطلع خبراً ، ثم ينقلب فى لهفة يحدق فى
الساعة الكبرى ... لم يكن القطار ليخرج إلا بعد
ساعة ، ولكنه كان يخشى أمراً .

وابتداً السّفَر يفد زُمرأ زُمرأ والفتى يفزع
لمرآهم ويحس كأن قلبه ينخلع ؛ ثم هو يشعر بالردة
تسرى فى مفاصله ، والكلال يسيطر عليه ، فرقا وخوفاً
وانتظر فطال به الانتظار ... ثم طلعت عليه

فتاة فى لباس أسود وتقاب أسود كثيف يغطى
معارفها ، وخطواتها تبدى عن بعض جمالها وشبابها
وفى يمينها حقيبة من الجلد صغيرة . وتلاقيا ...
ولبثا حيناً صامتين ، يداً فى يد ، وعليهما أثر الإعياء
والبهر ؛ ثم اندفعت الفتاة تحدثه : « ليو ! ما كنت
لأستطيع أن أثبتك وأنت فى نظارتك هذه ! »
قال ليو : « وأنا ، لقد كدت أنكرك وهذا النقاب

كانه لغة الهوى الصامتة . وفي الحق لقد سمى الفتى جهده زماناً ليظفر بالتي أحب ، غير أن عوائق جمة حالت بينه وبين أن يكون زوجاً لها

وبلغ القطار (ن ...) فقفز الرجل الانجليزي مسرعاً إلى الرصيف وخلف ليو يساعد فتاته . ووثب فتى انجليزي من العربة الثانية واشتد في إثر الرجل الانجليزي وهو يناديه : « أي عمى ، أي عمى ! » فأجابه الرجل في قسوة وغلظة : « دعني وحيداً ! » فصاح به الشاب : « لاتبذر في غراس اليأس ! » فالتفت إليه المم ثم أتى بحقيته عند قدمي ليو وهو يقول : « أرجو أن تحفظ متاعى ! » ثم سحب الشاب إليه يجره إلى ناحيته ، وانطلق يحدّثه في رفق ثم ناوله بعض الأوراق المالية فاندفع الشاب لايولى على شيء ...

وتلاق الجميع — بعد حين — في فندق القرية ، وجا صاحب الفندق ليو وصاحبته بخير الغرفات عطفاً منه على الفتاة — عادة تموّدها الفرنسيون فما يحسدون عنها ، تنبهي عن بعض ما فيهم من أدب وظرف — ودخلا ممّا الغرفة الزرقاء ، وقد لصق بها هذا الاسم منذ سنوات وسنوات لأن كرسيين كبيرين على جانبي المدفأة قد كسيا بالخمّل الأزرق ... ودخلا الغرفة فألفيا فيها — سوى الكرسيين — سريراً من خشب الجوز ، وستائر من قماش ذي ألوان جميلة ، ووجدوا جدران الغرفة مغطاة بورق جميل زين برسوم مختلفة وصور أنيقة ، امتدت إليها أبدى الزلاء بالعث حيناً وبالتشويه حيناً آخر ، فطمست كثيراً من رواها وبهجتها وحامت خادومات الفندق حول الفتاة ، يبدن

الأخرى رجل يضيق بمرآة صدرى لأننى أستشعر فيه اليهودية ، ثم إنى قد وطنت نفسى على ألا أسافر مع رجل واحد في عربة واحدة ! » ثم توسد حقيته وهو يقول : « سأنام ، وإن لم أستطع فسأقرأ » وحاول الرجل عبثاً أن ينام ، فأخذ يفتش عن كتاب في حقيته ، وحين فتحها بدا ما فيها من أشعث واضطراب ؛ وأعجز الرجل أن يجد كتابه ونظارته دون أن يلتقي ببعض ما في الحقيبة جانباً ؛ ثم تناول من بين متاعه حزمة ضخمة من الأوراق المالية الانجليزية وهزها أمام الشاب وهو يقول : « أفأستطيع أن أستبدل بهذه ورقاً فرنسياً في (ن ...) ؟ » قال الشاب : « قد تستطيع ، فهذه قرية في الطريق إلى إنجلترا ! »

واضطرب الشاب لأنه هو سيهبط هذه القرية في حجة فتاته ليختلسا من الدهر فترة نعيم بتذوقان فيها لغة الهوى المحض ، ورشفاً من رحيق الحياة قطرة صافية حلوة ، ثم لاتتمد يده إلى الثمرة المحرمة ؛ ثم هو أوجس في نفسه خيفة من هذا الرجل الغريب فما في (ن ...) سوى فندق واحد صغير . لقد اختلف ليو إلى هذه القرية مرات ومرات وأعجبه ما فيها من جمال وهدوء ، وجذبه إليها ما رأى من روعة وجلال ، فانطلق إليها هو وفتاته يستمتعان بجمال الطبيعة وسعادة الحب . والآن ... الآن حين صحبهما هذا الرفيق الثقيل اضطرب الشاب وفزع وسلبته خواطره بعض ما يستشعر في نفسه من لغة وطرب ...

ما يزال القطار في طريقه والرجل الانجليزي منكب على كتابه ، وقد شغله عن كل ما حوله ، والحبيبان يتحدثان حديث القلب في صوت خافت

فانطلق إلى صاحب الفندق يوحى إليه بأمر، وانطلق هذا إلى الجند يتألف في الحديث ويطلب إليهم أن يزعوا عنهم بعض فيجيجهم لأن عروساً مريضة تسكن الحجرة المجاورة؛ ودوت الأصوات في أرجاء المكان: «يجب أن تأتى لنشرب نخب صحتها!» لشد ما أزعج ليو أن يسمع أصواتهم المنكرة تملو طالبة أمراً. وتراءى له أنهم سيئنفعون في غير هواة ولا لين يستلبونه من فتاته وهو وحده لا يستطيع أن يكسر شرهم ولا أن يقلبهم على أمرهم... ولكن صوتاً أجش ارتفع من أقصى المكان يأمر الجميع بالصمت في صرامة وشدة، فأطاعوا، واطمأن ليو وصاحبه وراحا يتحدثان حديث الهوى

وأخذ الجند يتصدعون - عند نصف الليل - وهم يصيحون لدى باب الغرفة الزرقاء: «عمى مساء أيتها العروس الجميلة!» وخرج على أثرهم الرجل الإنجليزي بنادى: «زجاجة أخرى، أيها النادل!» ثم أتى السكون سجوفه على الفندق، فأطل ليو وصاحبه من النافذة يستمتعان بالليل الهادئ الجميل ويستروحان نسائته الندية، وأبصارها شاخصة إلى أشعة القمر المنبثة بين أشجار الحديقة تكسبها رونقاً وبهاء... وخيل إلى ليو أنه يرى ابن أخ الرجل الإنجليزي يضرب في أنحاء الحديقة حين رأى رجلاً يسير الهوينى مطرق الرأس يدخن سيجارة في هدوء ثم ارتدا يريدان النوم...

وجلسا يتحدثان والشمعة بازائهما على المدفأة يضطرب ضوءها ويخبو رويداً رويداً، ثم جذبتهما

جهدهن في إرضائها والعناية بها، وليو في الطهي يطلب المشاء. وترأى إلى مسميه أن فرسان الفرقة الثالثة سيتناولون غداءهم في حجرة الطعام الكبرى فارتاع واشتد به الأسى إذ يعلم أنهم لن يخففوا من هرجهم وفجيجهم حتى نصف الليل، وصاحب الفندق يهدى من روعه ويقسم أنهم على جانب من الأدب والحياء...

وراع الفتى أن يجد حجرته بين حجرة الطعام الكبرى وحجرة الرجل الإنجليزي الذى أفزعته مرآه منذ حين... ثم رأى الإنجليزي يتحسى الخمر ويحدق في سماء الحجرة في صمت وذهول. ستلمب الخمر برءوس الجند من ناحية، وستعبت بلب الرجل من ناحية أخرى، وهو بينهما لا يطمئن ولا يهدأ. واضطربت الأفكار في رأسه وتبلبل خاطره حين رأى في حجرته أبواباً ثلاثة: واحداً بينه وبين المطعم، والثانى بينه وبين حجرة الرجل الإنجليزي، والثالث إلى المشى. ماذا بفعل وقد قذفت به يد القدر إلى حيث لا يستقر وهو يريد الخلوة والهدوء؟ لقد أوثق رتاج بايين وجلس إلى فتاته...

واستشعر الفتى اللذة والسعادة وهو إلى جانب فتاته يناجها ويثبها بعض ما يحتاج في فؤاده في غير حذر ولا خوف. أفىستطيع الفتى أن يقول لنفسه: «أنا سعيد الآن!» وإذا قلها، أفىرى ما يضره له التيب وقد نظر إليهما الشيطان اللعين بعينين فيهما السخرية والهزؤ، وهما يتناولان طعامهما في دعة وطمأنينة، ومن حولهما صخب الجند ولجهم؟ ويل للانسان من الشيطان! فهو دائماً يمزج رحيق السعادة بصاب الأسى والألم، وأراد الشاب أن يجد لفتاته الراحة والهدوء

السائل : فدى قلبه دقات عنيقة ، وأراد أن يبرح مكانه ليرى ... ولكنه لا يستطيع أن يفرع فتاته وهي قد ألقت برأسها على كتفه

لقد هم ليو أن يندفع إلى حجرة الرجل الإنجليزي حين سمع الصوت لأول مرة ، ثم حين خشية أن يصبح فريسة لجنون القاتل ، ثم رفع يده يريد أن يضغط على الجرس ينبه صاحب الفندق إلى الخطر ، غير أنه سحبها في رفق حين تراءى له أنه سيزج بنفسه وفتاته بين أيدي الشرطة والنيابة .. والمحكمة يسألونه : من أنت ومن تكون هذه الفتاة ؟ ويلحون في السؤال ... فتكون الفضيحة . وماذا يضيره إن هو أغضى ليقى على نفسه وعلى فتاته ؟ وتعلقت عينا الفتى بالشظية والسائل الأحمر ، وذهل عن نفسه حيناً ثم بدت أول ساعة من النهار خيفة مروعة فيها الفضيحة والعار . ثم أضاء له بصيص من نور الأمل ، فقال لنفسه يحدثها : « لا بد أن نبرح عند الفجر قبل أن يكشف عن الأمر » واطمأن إلى الفكرة ثم أخذ يبحث عن ميعاد أول قطار يغادر (ن ...) في الصباح الباكر ، فأفرعه أن يكون أول قطار هو قطار الساعة الثامنة صباحاً . أفيطمئن هو إلى أن واحداً لن يدخل حجرة الرجل الإنجليزي قبل الثامنة ؟

وأراد أن يتعد قليلاً عن فتاته لينشر الأمر أمام عينيه في خلوة أو شبه خلوة ، فسحب ذراعه في رفق ولكن الفتاة استيقظت . وارتاعت أن وجدت صاحبها يرتجف وقد جمد الدم في عروقه ، وبردت أطرافه ، فقالت وهي تضمه إليها في شغف : « ماذا ، ماذا كان ؟ » قال في صوت خافت مضطرب

عن أخيلتهما أن سمما كأن جسماً ثقيلًا ينهد في حجرة الرجل الإنجليزي ، وكأن النضد ينقلب ... ثم سمما آهة عميقة وأنيكاً ووعيداً . وسيطر الفزع على الحبيين ، ولكن الفتى راح يخفف عن فتاته بعض ما أخافها قئلاً : « لعل هذا الإنجليزي يحلم ! » غير أن الملح كاد يعصف بما بقى فيه من شجاعة حين خيل إليه أن باب حجرة الرجل الإنجليزي يصر صريراً خافتاً ، وأن رجلاً ينسل في حذر خشية أن يشعر به أحد ، فهمس في أذن صاحبه : « ما هذا الفندق ؟ » قالت الفتاة في هدوء : « آه ، إنه كالفرديوس » ثم ألقت برأسها على كتفه وهي تقول : « آه ، إن الناس يغالبني فلا أستطيع دفعه ! » ثم راحت في سبات عميق ...

واستولى على ليو الأرق ، وفي خياله الرجل الإنجليزي ملقى على الأرض وأوداجه تشخب دماً ، وابن أخيه يقذف بالسكين إلى جانبه ثم يفر هارباً .. واستقرت الفكرة في خاطره فما يستطيع دفعها .. وى كأن الشاب الإنجليزي تسلق الجدار إلى حيث عمه ليسفك دمه ويستلبه ماله ، ثم يتسلل في هدأة الليل وسكونه ! بالشناعة الأثم ، وبالجرأة الأثم ! وتناهبت الفتى الأفكار السود فأقضت مضجعه وسلبته طمأنينته وهو إلى جانب فتاته النائمة . لقد أراد أن يتذوق حلاوة الرضا ، وأن يرى نور السعادة التي اقتنحها دهرًا من عمره ؛ غير أن القدر شاء أن يقضى ليلته قلقاً ما يستقر ولا يهدأ ... وتعلق بصره بالباب الذي بينه وبين الرجل الإنجليزي فראה أن يرى سائلاً أحمر يتسرب في بطاء من فرجة في أسفل الباب ، وأن يرى شظية ينمكس عليها ضوء الشمعة فتبدو لامعة وهاجة وسط هذا

روح الأسى واليأس كأنها تشيعهما إلى النهاية ...
وألح الفتى على صاحبه أن تتناول قدحاً من القهوة
واللبن فامتنعت عليه لأن الخوف كان قد سلبها
كل ما تشهى النفس

وهبط أيو إلى الطابق الأسفل في نظارته الزرقاء
وإلى جانبه فتاته في نقابها الأسود؛ ثم انطلقا معاً إلى
صاحب الفندق ليدفعا إليه أجر الغرفة ثم يسرعا
إلى المحطة . وراح صاحب الفندق يحدث الشاب
حديث الجند وحديث الرجل الإنجليزي ، فأطنب
وأفاض ، وليو يتحامل على نفسه من أثر الإعياء
والجهد ، والفتاة من خلفه تكاد تسقط من شدة
التعب والآن ؛ ورأى صاحب الفندق ما يبدو على
وجه الفتى من شحوب فقال : استريحاً في الوقت
متسع . إن القطار لا يصل قبل الثامنة ، وكثيراً
ما يتأخر ! « جلسا وبودها لو طارا إلى المحطة فراراً
من المصيبة التي تنتظرهما في الطابق الأعلى

وفي هذه اللحظة دخلت الخادم وهي تنادي :
« هات ماء ساخناً لشاي الرجل الإنجليزي وقطعة
من الاسفنج أيضاً لأنه حطم زجاجة الخمر فلوثت
أرض الغرفة وملأها ريحاً خبيثة ! »

واهتزت الشابة طرباً ، وابتسم الشاب ، وتبادلا
نظرات فيها الدهشة والذهول ، وكما بين شفتهما
ضحكات تكاد تنفجر قوية عاصفة ، ثم أمسك الفتى
بذراع صاحبه وانطلقا معاً إلى الغرفة الزرقاء وهو
يقول لصاحب الفندق : « لن نسافر قبل الثانية بعد
الظهر ، هي لنا غداء شهياً نتناوله في غرفتنا »

لأمم محمود صبيب

« لاشئ » ، غير أنى سمعت هزة عفيفة في الحجرة
المجاورة ! « ثم سحب نفسه من بين ذراعيها في
رفق ليضع كرسيّاً بإزاء الباب يخفى به السائل
والشظية عن عيني الفتاة ؛ ثم فتح الباب في رفق يرقب
المشى وباب حجرة الرجل الإنجليزي في حذر ،
ثم طنّ في مسميه صوت خطوات ثقيلة متزنة تنبئ
عن جندي يرقى درج السلم ، فارتد يحدث فتاته
حديث خياله ...

ما يزال الخطر جاثماً على خطوات منهما ... !
واستخرطت الفتاة في البكاء تذرف الدمع أسى
وحسرة على ما خبأ لها القدر في ليلة أراد أن
يقضيها عند محراب الهوى ينعمان بهمس القلب
ووسوسة القبل في منأى عن الواشي والرقب ،
وينشقان فيها نسيمات السعادة وقد ضنت عليهما بها
الأيام حيناً من الدهر . إن بينهما وبين السجن
الساعات القليلة الباقية من الليل فهما في عيني القانون
مذنبان يتضرعان بحمأة الجريمة ؛ وراح كل واحد
يودع صاحبه وداعاً حاراً وقلبه يتفطر لوعة ، وكبده
ينشق عن يأس وكمد ، وهما ينتظران النهاية ...
النهاية الأليمة

وانتفضا معاً من شدة الدعر حين سمعا خطوات
أول إنسان يجتاز المشى . لقد ابتدأ الناس يهبون
من مراقدهم عند السادسة ... كيف يجلسان هنا ...
في هذه الحجرة طول هذه المدة ... ! إن القطار لا يصل
إلا عند الثامنة ! ها هم أولاً ، الخدم ترن ضحكاتهم
في ردهة الفندق ، والخادومات يغنين ، والجند
يروحون ويحيثون يصفرون صفيراً أنغامه متضاربة .
إن هذه الأصوات تصك آذان الرقيقين فتنتف فيهما